السجن

-أذكر لي بالتفصيل قصة سجنك

-في 19 أيار عام 45 استدعاني الكولونيل دي زيسار نائب المندوب السامي الفرنسي في حمص وقال لي "أنا آسف كل الأسف، لدي أوامر بالقبض عليك لأنك تشكل في الجيش تيارا معاديا للسلطة الفرنسية، وأنا كجندي يحب بلاده ملزم بتنفيذ الأوامر".

قلت له – أأنت لك الحق في أن تحب بلادك وأنا ليس لي الحق في أن أحب بلادي؟ ان حبي لبلادي هو الذي يدفعني لمناهضتكم وتحرير وطني منكم.. ماذا تفعلون في بلادنا ولماذا لا تسحبون جيوشكم، ولماذا لا تنفذون وعدكم لنا بالاستقلال؟

عاد الى الاعتذار ثم أردف:

– اني أوقف تنفيذ الأمر باعتقالك اذا حصلت منك على وعد شرف أن لا تتدخل في السياسة.

-أبدا لن تحصل مني على هذا الوعد. يمكنك أن تسجنني، يمكنك أن تحاكمني، يمكنك حتى أن ترميني بالرصاص، ولكن أبدا لن تحصل مني على مثل هذا الوعد لأنني سأقاوم الفرنسيين حتى يخرجوا من بلادي، وسأفعل ذلك حتى آخر رمق من حياتي ..

-انني معجب بك مسيو بزري. دائما كنت معجبا بشجاعتك وكفاءتك واستقامتك، ولكنني إزاء تصلبك ملزم بالقبض عليك، فأرجوك أن لا تحقد علي، ولا تحاول الهرب لأنك في هذه الحالة تتعرض للقتل، وسيرافقك ضابطان فرنسيان الى بيروت.

وضعت في سجن عسكري منفرد في د. ت. ل. في بيروت ولم أكن أعلم أن أخي صلاح معتقل فيه. وكان حارس السجن زنجيا من السنغال.. قال لي ذات يوم "أنت مسلم؟ " "نعم" "كيف تكون مسلما وتعارض دي جول؟ " رددت عليه بسؤال آخر "وأنت كيف تكون مسلما وتترك بلادك وتأتي لتحارب بلدا مسلما وشعبا مسلما؟" أجابني بشفاتيره الغليظة "موا شفيليجي توا" أي جئت لتمدينك .

كان يلفظ السين شينا والزاي جيما ويعتقد دون أن يعتريه شك بأنه يقوم بواجب وطني في حبه لفرنسا وديجول وبدور حضاري في تمدين مستعمراتها. ضحكت كثيرا وما أزال أضحك كلما استحضرت مفارقات هذا الموقف ..

كان يرافقني بضعة ضباط فرنسيين في نزهتي الأسبوعية. سألني أحدهم "كيف تجد نفسك؟ " انتظر أن أثني على حسن معاملتهم لي، ولكنني أجبته بغضب "كأنني بين أكلة لحوم البشر "

-هل صدر منا ما يزعجك ؟

–ألا يكفي أنكم تعتقلونني، بينما كان علي أن أكون هناك في دمشق ملتحقا بالحركة الوطنية التي تطردكم من البلاد؟

وعولت على الهرب ونجحت فيه. اخترت ذلك الوقت المناسب الذي يكون فيه الحارس منهكا من السهر وهو على وشك أن يسلم دوره في الحراسة الى آخر. كان ذلك في الخامس من حزيران، غافلته وهربت. وجرحتني الأسلاك الشائكة التي كان علي اجتيازها، وسرت على غير هدى في الليل على طريق البحر حتى بلغت كوخا لأحد الصيادين فآوتني العائلة ونمت مع أبنائها في الفراش. وفي الصباح رافقني اثنان منهم سيرا الى دمشق.

التحقت بالحركة الوطنية. كنا أول من التحق بها: أنا ثم أخي وسري رباط اللذان خرجا من السجن بعدي بعشرين يوما .

قال لي الضابط الفرنسي الذي سلم الوفد الذي كنت عضوا فيه مخلفات الجيش:

–مسيو بزري. أنا أهنئك على شجاعتك، وكنت أتمنى لو أنكم ستقطفون ثمرة نضالكم استقلالا حقيقيا، ولكنكم واهمون. سيأتي يوم تبكون فيه من أجلنا.

أجبته – لم يحدث قط أن بكى انسان على مستعمريه .

هز رأسه أسفا وردد بلهجة حزينة:

–أنت انسان شريف، لا تدري ما يجري في الفوقيات.. نحن في سوريا ولبنان وقفنا معكم ضد تمدد اسرائيل، غدا ستتلقفكم بريطانيا والولايات المتحدة واسرائيل. وسيكون قيدكم ثقيلا فتترحمون على قيدنا الذي لم يكن الا لعبة. (أي والله هذا ما قاله بالحرف).

أجبته – من اعتاد على كسر قيد يهون عليه كسر كل القيود.

رفع يديه الى السماء بحركة تمثيلية وقال باللغة العربية "انشاء الله! " ورددها مرتين ثم مد يده لوداعي

– أتمنى أن نراكم في أحسن حال!

وقلت في سري "نسي حرق البرلمان وقتل الأبرياء ونهب الثروات والتخلف الذي تركونا غارقين فيه".

وتركت يده معلقة ولم أمد يدي!..

* * *